

معالم النقد الثقافي المقارن عند إدوارد سعيد
Contours of Edward Said's Comparative Cultural Criticism

* عشونة لمياء

Aichouna lemya

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية، جامعة 8 ماي 1945 -قائمة
جامعة 08 ماي 1945 -قائمة- (الجزائر)

The 8th of May 1945 University – Guelma (Algeria)

aichouna.lemya@univ-guelma.dz

تاريخ النشر: 2026/09/02

تاريخ القبول: 2026/05/03

تاريخ الإرسال: 2026/03/15

ملخص البحث

يهدف البحث إلى إبراز معالم النقد الثقافي المقارن في كتابات "إدوارد سعيد"، الذي قدم مقترحاً جديداً لقراءة النصوص الأدبية بمقارنتها بنصوص أدبية تنتمي إلى ثقافات مغايرة، استناداً إلى ما سماه "القراءة الطباقية"؛ وهي قراءة ثقافية تقول بدنيوية النص الأدبي، وتبحث في أنساقه الثقافية المضمرة؛ لكشف الطرف الثاني من المعادلة: صوت الهامش أو التابع الذي لم يتكلم.

خلص البحث إلى نتيجة مفادها أن النقد الثقافي المقارن - عند إدوارد سعيد- يهدف إلى تجاوز الصراع الثقافي بين الأمم والشعوب، ويعترف بالهويات الهجينة، والتجارب الإنسانية المشتركة.

الكلمات المفتاح: إدوارد سعيد، دنيوية، قراءة طباقية، مركز، هامش.

Abstract:

This research aims to highlight the contours of comparative cultural criticism in the writings of Edward Said, who proposed a new approach for reading literary texts by comparing them with literary texts from different cultures, based on what he termed "contrapuntal reading." This is a cultural reading that asserts the "worldliness" of the literary text and examines its latent cultural patterns to uncover the second side of the equation: the voice of the margin or the subaltern who has not spoken.

The research concludes that comparative cultural criticism—for Edward Said—aims to transcend cultural conflict between nations and peoples and recognizes hybrid identities and shared human experiences.

Keywords: Edward Said, Worldliness, Contrapuntal Reading, Center, Margin.

* عشونة لمياء: aichouna.lemya@univ-guelma.dz



مقدمة

ظهر الأدب المقارن في البيئة الفرنسية التي اشترطت مبدأ الصلات التاريخية بين الآداب، وعدته جوهر الدراسة المقارنة، غير أن بعض أعلام المدرسة الفرنسية استثمروا هذا الحقل المعرفي لترويج أسطورة تفوق الرجل الأوروبي على بقية شعوب العالم. وفي الجهة المقابلة، برزت المدرسة الأمريكية المقارنة، ووجهت نقداً لاذعاً للدرس الفرنسي المقارن، وفضحت النزعة التعصبية لرواد المنهج التاريخي المقارن، ووسعت مجال المقارنة مستندةً إلى مبدأ يقوم على التعددية الثقافية واحترام الآخر.

كانت البداية الخاطئة للدراسات المقارنة سبباً في أزمتها هذا الحقل المعرفي الذي أوشك على الزوال بعد ظهور النظرية ما بعد الكولونيالية التي أعادت ترتيب العلاقة بين المركز والهامش، ووجهت الأنظار نحو الثقافات التي غيبتها الغرب عن التاريخ، وفككت السرديات الكبرى التي استكان إليها الفكر ردحاً طويلاً من الزمن.

يعد الناقد "إدوارد سعيد" علماً بارزاً في دراسات ما بعد الاستعمار التي استندت إلى نقد دنيوي يتجاوز جاليات النصوص، ويبحث في الأنساق المضمرة التي تخزنها السرديات الغربية التي تورطت في خدمة المد الإمبريالي، والترويج لمقولة تفوق الرجل الأبيض على بقية الأجناس الأخرى، وتندرج بحوث "إدوارد سعيد" ضمن حقل "النقد الثقافي المقارن"؛ لأنه اشتغل على تأويل النصوص الثقافية بهدف البحث عن الإنساني المشترك بينها، واعتمد على مفهوم مركزي سماه "القراءة الطباقية"؛ وهي مقارنة ثقافية تكشف التضمينات الكولونيالية التي أضمرتها الروايات الغربية.

اقترح "إدوارد سعيد" هذه القراءة المقارنة من أجل إسراع صوت الفئات المهمشة والمغيبية عن المشهد الأدبي؛ إذ كتبت هذه الهوامش سرداً مضاداً للسرد الأوروبي، وركزت على الخصوصية الثقافية التي تجلت في شكل استعارات ثقافية وتضمينات مشفرة أعادت تصحيح التمثيلات المغلوطة التي أشاعها الغرب عن الشعوب الأصلية.

تمحورت إشكالية البحث حول التحول المعرفي الذي مس الدراسات المقارنة التي ذابت في حقل الدراسات الثقافية، وحاول البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية:

ما علاقة الأدب المقارن بالنقد الثقافي المقارن؟

ما أهم مرتكزات النقد الثقافي المقارن عند إدوارد سعيد؟

ما مفهوم النقد الدنيوي؟

وما المقصود بالقراءة الطباقية؟

وللإجابة عن إشكالية البحث، استعنا بالمنهج الوصفي والتاريخي لتتبع تطور الدراسات المقارنة، وانصهارها في بوتقة النقد الثقافي المقارن. ويندرج بحثنا ضمن حقل "نقد النقد"؛ لأنه سعى إلى تقييم الأدب المقارن، وعرض أهم المزالق الفكرية التي وقع فيها هذا المجال من البحث.

وهدف البحث إلى إبراز معالم النقد الثقافي عند "إدوارد سعيد" الذي أفنى عمره في مجال الدراسات المقارنة، وواكب مستجدات الدرس المقارن الذي انصهر في حقل الدراسات الثقافية، إذ يعد "إدوارد سعيد" من أبرز نقاد الدراسات الثقافية المقارنة التي صححت الصور المغلوطة التي شاعت عن الشعوب المهمشة.

أولاً: الأدب المقارن بين المنظور التاريخي والمنظور النقدي

1/ المنظور التاريخي في تعريف الأدب المقارن

الأدب المقارن هو "دراسة الأدب القومي في علاقاته التاريخية بغيره من الآداب كيف اتصل هذا الأدب بذلك الأدب، وكيف أثر كل منها في الآخر. ماذا أخذ هذا الأدب وماذا أعطى. وعلى هذا فالدراسة في الأدب المقارن تصف انتقالاً من أدب إلى أدب. قد يكون هذا الانتقال في الألفاظ اللغوية أو في الموضوعات أو في الصور التي يعرض فيها الأدباء موضوعاته أو في الأشكال الفنية... وقد يكون الانتقال في العواطف أو الأحاسيس التي تسري من أديب إلى أديب آخر حول موضوع إنساني" (طه، 1991، صفحة 20)؛ بمعنى أن الأدب المقارن هو رصد لأوجه التشابه والاختلاف بين آداب الأمم المختلفة، أو هو دراسة العلاقات الأدبية الدولية بهدف إثبات الصلات بين آداب الأمم المختلفة.

كانت المدرسة الفرنسية المقارنة مدرسة رائدة في الأدب المقارن، ويُعرف "جون ماري كاريه" -أحد رواد المدرسة الفرنسية- الأدب المقارن بأنه "فرع من التاريخ الأدبي، لأنه دراسة العلاقات الروحية الدولية، والصلات الواقعية" (ماريوس، 1988، صفحة المقدمة)؛ بمعنى أن الأدب المقارن يقوم على ثنائية التأثير والتأثر بين الآداب القومية المختلفة، وهو يرصد مواطن التلاقي بين الآداب، ويبحث في الصلات التاريخية الواقعية بين الآداب والأمم المختلفة لغةً.

ركزت المدرسة الفرنسية المقارنة على الصلات التاريخية بين الآداب، و"اشتراط المنهج التاريخي على الدارس المقارن ألا يشرع في دراسة تاريخية مقارنة إلا بعد إثبات اتصال تاريخي موثق بين طرفي الدراسة المقارنة" (رضوان، 1990، صفحة 15)، وإلى جانب شرط الصلات التاريخية، أخرجت المدرسة من ميدان المقارنة الآداب التي تنتمي إلى أدب قومي واحد؛ لأنها متشابهة اللغة وتنتمي إلى مجال ضيق، أما الشرط الآخر فهو حصر المقارنة في مجال الأدب وحده وإخراج باقي أشكال التعبير الإنساني.

إن سبب ريادة فرنسا في الدراسات المقارنة يرجع إلى "أن الفضاء الاستراتيجي لفرنسا، ساعد هذه الأخيرة في أن تكون ملتقى تيارات من جهة، كما إن التاريخ التوسعي لمستعمراتها أفرز بدوره الكثير من ردود الفعل من جهة ثانية، مما خدم موقع المدرسة من زاويتين، هما الفضاء والتاريخ" (علوش، 1987، صفحة 55)؛ هذه الأسباب رتخت لدى أعلام المدرسة عقلية التفوق والنظر إلى الآخر نظرة دونية، وانصب هدف الدراسات الفرنسية المقارنة على تمجيد الأدب القومي الفرنسي، ومحاولة إثبات تأثير هذا الأدب في آداب الأمم الأخرى. وقد تورط أغلب رواد هذه المدرسة في خدمة المركزية الأوروبية والزعزعات العرقية التي تؤمن بتفوق الرجل الأوروبي في كل المجالات، ومن هنا تحول الدرس المقارن إلى امتداد للمد السياسي الذي سعى إلى إلغاء الآخر، وهذا الإلغاء حال دون تحقق فكرة عالمية الأدب التي تشترط الانفتاح على أدب الآخر، والإيمان بالتجارب الأدبية القائمة على الأخذ والعطاء.

2/ المنظور النقدي في تعريف الأدب المقارن

قام المنهج الأمريكي المقارن على نقد المنهج الفرنسي التاريخي الذي "تعرض لمساءلة قوية خلال المؤتمر الثاني لـ ((الجمعية العالمية للأدب المقارن)) الذي انعقد في شابل هيل سنة 1958م، وذلك حين ألقى روني ويليك مداخلة الشهيرة

تحت عنوان «أزمة الأدب المقارن» (أراق بن محمد، 2015، صفحة 69)، وفيها انتقد "ويليك" الدرس الفرنسي المقارن الذي بالغ في البحث عن الصلات التاريخية بين الآداب، وأهمل البعد الجمالي للنصوص المقارنة. وسّعت المدرسة الأمريكية المقارنة مجال المقارنة لتشمل: "مقارنة أدب معين مع أدب آخر أو آداب أخرى، ومقارنة الأدب بمناطق أخرى من التعبير الإنساني" (الخطيب، 2018، صفحة 30)؛ اقترح أعلام المدرسة الأمريكية المقارنة مفهوماً أوسع للعلاقات الأدبية، لتشمل العلاقة بين الأدب وأنماط التعبير الإنساني الأخرى؛ كالفلسفة، والرسم، والنحت، والعمارة... وغيرها. أولت المدرسة الأمريكية المقارنة اهتماماً بالغاً للبعد الجمالي في مقارنة النصوص الأدبية، على عكس المدرسة الفرنسية التي ركزت على العوامل الخارجية في عملية المقارنة، وطالب أعلام الدرس المقارن الأمريكي بأن "تتوسع نظرة الأدب المقارن لتشمل البحث عن المشابهات في الأفكار الأدبية وفي النوق الجمالي، لأنه بغير ذلك لا يكون الأدب المقارن فعالية حية مرتبطة بقضايا العصر. وهم لا يشترطون وجود علاقة تاريخية أو تأثير وتأثير في منطقة الأدب المقارن، إنما يعتبرون المشابهات الجمالية والذوقية أساساً للبحث ووسيلة لاكتشاف العنصر المشترك على مستوى الإنسانية" (الخطيب، 2018، صفحة 30).

قامت المدرسة الأمريكية -إذن- على مبدأين: "المبدأ الأخلاقي، ويعكس موقف أمة كبيرة ومنفتحة على العالم. وهي منشغلة، من ثم، بإعطاء كل ثقافة أجنبية، ما تستحقه من عطف ديمقراطي، وواعية في نفس الحين بجذورها الغريبة. أما المبدأ الثقافي، فيسمح للأمريكيين بأخذ بعد من هذه البانوراما الواسعة، -التي يمثلها القديم إلى حدود القرن 20- وأن تحتفظ بالقيم الجمالية والإنسانية للأدب، بنوع من الغيرة حيث تشعر بها -القيم- كفتح روحي، ملاحقة تجريب المناهج والتأويلات» (علوش، 1987، صفحة 93)؛ فالمدرسة الأمريكية لم تتورط في خدمة النزعات المركزية التي تعلي من قيمة الأنا على حساب الآخر؛ لأن أمريكا كان يسكنها مزيج من الأعراق والثقافات.

ثانياً: من الأدب المقارن إلى النقد الثقافي المقارن

ظهر الأدب المقارن كبدل للدراسات الأدبية والنقدية التي تركز على البعد القومي الضيق؛ "فوجه اهتمامه إلى رصد الصلات القائمة بين الآداب المختلفة، وإبراز علاقات الائتلاف بينها، وعبر عن تطلع رومانسي نحو الاحتفاء بالمشترك الإنساني الكامن في أنظمة الترميز الأدبي والفني" (أراق بن محمد، 2015، الصفحات 68-69)، لكن هذا التطلع والتوجه إلى النزعة الإنسانية أو التجارب الإنسانية الأدبية المشتركة لم يتحقق على أرض الواقع؛ لأن الأدب المقارن تحول إلى وسيلة لتغذية النزعات التعصبية والعرقية، خاصة عند بعض رواد المدرسة الفرنسية الرائدة في الأدب المقارن.

حاول أعلام المدرسة الأمريكية إخراج الأدب المقارن من الأزمة التي عصفت به عن طريق دمجها بحقول معرفية أخرى، "ولعل أهم مظاهر تجديد الأدب المقارن كان هو الافتتاح على الدراسات الثقافية، والنقد الثقافي المقارن، والدراسات ما بعد الكولونيالية ودراسات الترجمة translation studies، وغيرها من الحقول التي وجدت نفسها تشغل جوهرياً بروح مقارنة" (أراق بن محمد، 2015، صفحة 77)؛ فالدرس المقارن اصطدم بأسئلة طارئة تنبذ التعصب والإقليمية التي وسمت المنظور الفرنسي المقارن، وتطرح قضايا تختص بثقافات هامشية كانت مغمورة ومغيبة عن المشهد الأدبي، وقد عمد مفكرو هذه الثقافات إلى محاسبة الأعمال العظيمة والروائع العالمية التي رُوّجت لمقولة تفوق الحضارة الغربية على باقي حضارات العالم.

عجز الأدب المقارن عن احتواء التنوع الثقافي والعرقي الذي تزامن مع ظهور سرديات بديلة للسرد المركزي الغربي، فظهرت طروحات فكرية تنبئ بموت هذا الحقل المعرفي، فركب الباحثون موجة الدراسات الثقافية التي انتعشت في أمريكا، وظهر النقد الثقافي المقارن، واهتم بقراءة "النصوص الثقافية القومية في علاقتها مع النصوص الثقافية في ثقافات العالم" (المناصرة، 2005، صفحة 10). وقد مثل الأدب المقارن مرحلة جنينية للنقد الثقافي المقارن؛ لأن جوهر هذا المجال هو المقارنة الثقافية بين الآداب؛ بمعنى استدعاء السياقات التاريخية والثقافية عند مقارنة النصوص الأدبية؛ وتجاوز جاليات النص، والقول بأن النصوص موجودة في العالم.

ثالثاً: "إدوارد سعيد" والنقد الثقافي المقارن

تندرج بحوث "إدوارد سعيد" ضمن حقل "النقد الثقافي المقارن"؛ لأنه اقترح قراءة تأويلية ثقافية للنصوص التي تنتمي إلى ثقافات مختلفة، بهدف البحث عن الإنساني والمشارك بين هذه النصوص. وهو يتجاوز المنظور التاريخي القائم على المقارنة الضيقة التي تورطت في خدمة النزعات العرقية التعصبية، ويقترب أكثر من المنظور النقدي الأمريكي الذي ينطلق من مبدأ احترام الآخر، ويؤمن بالتعدد الثقافي والعرقي.

أغنى الناقد "إدوارد سعيد" حقل دراسات ما بعد الكولونيالية بسلسلة كتب نقدية عبرت عن عمق فكري وجدة في الطرح، وأعاد ترتيب عدد من المفاهيم النقدية التي استكان إليها النقد الأدبي ردحاً طويلاً من الزمن؛ حيث أكد "إدوارد سعيد" على تجاوز البعد الشكلي والجمالي للنص، والقول بدنيوية النص الأدبي؛ أي ربط النص بالواقع والثقافة التي أنتجته. وهذا الطرح كشف تورط الخيال الأدبي الغربي في إشاعة تمثيلات مغلوطة عن الآخر الشرقي.

يرجع الفضل في ظهور النظرية "ما بعد الكولونيالية" إلى كتاب "الاستشراق" لـ "إدوارد سعيد"، لكن الحقيقة أن "موضوع هذا الكتاب كان في الأصل بحثاً يندرج ضمن التوجه المقارني، لأن إدوارد سعيد كان أستاذاً للأدب المقارن، لكن ما فعله إدوارد سعيد في هذا الكتاب هو إشراع الأدب المقارن على قضايا غير تقليدية في المقارنة" (أراق بن محمد، 2015، الصفحات 79-80)، ومجال اشتغال النظرية ما بعد الكولونيالية هو البحث في أثر التجربة الاستعمارية على ثقافات الشعوب المستعمرة، ومناقشة أسئلة عن علاقة الشرق بالغرب على المستوى الفكري والثقافي، أما جوهر النظرية فهو المقارنة بين السرد الغربي والسرد الشرقي، الذي اعتبر مقاومة ثقافية للسرد الغربية الأحادية الصوت.

صرح "إدوارد سعيد" باتمائه إلى حقل الأدب المقارن قائلاً: "وبوصفي إنسانياً حقله الأدب، فإني بلغت من العمر ما يكفي لأن أكون قد قضيت الأربعين عاماً الماضية في حقل الأدب المقارن" (إعجاز و سعيد، 2004، صفحة 219). وهذا القول يعزز طرحنا الذي يروم إبراز معالم النقد الثقافي المقارن في فكر "إدوارد سعيد"، خاصة أن الأدب المقارن قد اعتبر مرحلة جنينية للنقد الثقافي المقارن.

إلى جانب هذا التصريح، يمكن إبراز علاقة كتابات "إدوارد سعيد" بالنقد الثقافي المقارن من خلال كتاباته التي تنتمي إلى النظرية ما بعد الكولونيالية، خاصة "النقد الديني"، و"القراءة الطباقية".

1/ مفهوم النقد الديني عند إدوارد سعيد

يُصنّف إدوارد سعيد "مع نقاد ما بعد البنيوية الذين أقاموا ثورة على البنيوية التي ضيّقت مجال النقد وحصرته في البحث عن جالية النص والاهتمام بالملكون اللغوي بدل ربط النص بسياقه الخارجي والظروف المحيطة به، فـ"إدوارد

سعيد" على رأس من أعملوا معولهم في البنيوية التي انتهى أمرها في أقل من عقدين تقريبا، إذ لم تستطع أن تصمد أمام أطروحة الثقافة التي شيدها روادها على أساس بنیان مرصوص بين الثقافة والمجتمع، وهكذا أعلنت البنيوية إفلاسها على يد أولئك الرواد الذين أعلنوا على الملأ أن لا معنى لنظام لغوي في حد ذاته وبوصفه منفصلا عن المجتمع" (سعيد، الثقافة والمقاومة، 2007، صفحة 90). وهكذا وجه إدوارد سعيد النقد الغربي والعربي نحو الاهتمام بربط النص بالمجتمع، وبالبني الأيديولوجية المهيمنة على عصر الكاتب، واجترح مداخل جديدة لقراءة النص الأدبي، وأمد النقد بأليات جديدة تكشف عن تورط النص في خدمة تعزيز بني الهيمنة، وهذا المدخل النقدي هو ما يعرف عنده بـ "النقد المدني" أو "الدينيوي".

اقترح "إدوارد سعيد" نقداً مغايراً للمألوف أطلق عليه اسم "النقد المدني" (Secular Criticism)، وهو نقد لا يحتكم إلى المعايير النقدية التي سنتها المؤسسة؛ لأنه يُسائل هذه المعايير. وهذا النقد يفتح على "الأقليات المهمشة من أجل إحضارها إلى المتن الثقافي، ومع كسر الحدود القومية والعرقية من أجل تحقيق خطاب عالمي إنساني ومن أجل تحرير الناقد من هيمنة الانتماءات العنصرية" (الخليل، 2016، صفحة 307)؛ فالنقد الغربي تورط في خدمة المركزية الغربية التي أقصت الآخر، وعملت على إشاعة خطاب عرقي يقول بتفوق كل ما هو غربي، وهذه التمثيلات المغلوطة نتجت عن نقد مؤسسي تُغذيه نزعات عرقية، وهذا ما يثبت الطرح القائل بعلاقة المعرفة بالسلطة، والذي يُنسب إلى الفيلسوف الفرنسي "ميشال فوكو"، الذي مثل خلفية فلسفية لفكر إدوارد سعيد عن دنيوية النص وارتباطه بالثقافة والمجتمع.

حلل إدوارد سعيد العلاقة المتشابكة بين الأدب والمجتمع، وأثبت أن التحليل النصي تحليل عقيم لا يتجاوز حدود اللغة؛ لأنه يسقط العلاقة الجدلية التي تربط الخطاب الأدبي بالواقع؛ فالنصوص —عند إدوارد سعيد— هي نصوص "دنيوية"، وهي أحداث إلى حد ما، وهي فوق كل هذا وذاك قسط من العالم الاجتماعي والحياة البشرية، وقسط بالتأكد من اللحظات التاريخية التي احتلت مكانها فيها وفسرتها حتى حين يبدو عليها التنكر لذلك كله» (سعيد، العالم والنص والناقد، 2000، صفحة 8). ولا بد لأي تحليل أن يستدعي السياقات الاجتماعية والسياسية والتاريخية التي كتب فيها النص الأدبي؛ لأن النص يمتص هذه السياقات بطريقة واعية أو غير واعية، ثم إن جماليات النصوص تُضمّن تحيزات أيديولوجية تخدم جهة ما، وتُعزز شكلا من أشكال الهيمنة.

انتقد إدوارد سعيد نظريات الحداثة التي روجت لمقولة موت المؤلف، وراهنّت على البنية الشكلية في تحليل الخطابات الأدبية؛ فالمؤلف حسب إدوارد سعيد: "ليس مبتدأ على الإطلاق، فهو حاضر دوماً بواسطة قصيدة ملموسة، على الرغم من أن الضغوط الاجتماعية تؤثر فيه. وبالنسبة إليه، فإن المؤلف لا يملك وظيفة قولية ضيقة فحسب، وإنما يملك كل المقومات ليعبر عن موقفه الملتزم والإيديولوجي الفاعل" (واليا، 2007، صفحة 61). إن المؤلف ليس بريئاً على الإطلاق، وهو لا يكتب نصاً جمالياً فحسب، بل يمكن أن يمر أنساقاً ثقافية تحت غطاء الجمالي. والطرح القائل بأن النص يمتص هذه السياقات بطريقة غير واعية طرح بعيد عن الحقيقة؛ لأن المؤلف يجب أن يكشف التحيزات الأيديولوجية السائدة في عصره، وأن يلبس عباءة المثقف الملتزم الذي لا تغريه السلطة فيتحول إلى ناطق باسمها ووسيلة لنشر أفكارها الأيديولوجية.

إن مفهوم "الدنيوية" عند إدوارد سعيد يتلخص في "درجة اتصال الأعمال الأدبية وتفاعلها مع أعمال أخرى في المؤسسات واللحظات التاريخية والمجتمع" (مجموعة مؤلفين، 2004، صفحة 147). والناقد الدينيوي هو من يكشف اتصال

الأدب بالمؤسسة، ويكشف مباركة الأدب للتحيزات الأيديولوجية التي تصدر عن السلطة؛ فالنص دينوي وغير بري لأنه جزء من لعبة كبرى نتجت عنها بنى أيديولوجية تحكمها نزعات عرقية مقبنة. وعلى الناقد الديني ألا ينشغل بجالية النص؛ فـ «المركزي بالنسبة لأطروحة سعيد هو ذلك الدور التدخل للناقد. فما يجب على المؤلف أو الناقد أن يكونا واعيين لدور النتاج الثقافي في فعل الكتابة» (واليا، 2007، صفحة 60)، وألا يقع في فخ مقولة إن النصوص كيانات مستقلة؛ لأن النص منتج ثقافي ينقل الاستعارات الثقافية التي شاعت في عصر الكاتب، ويضمّر اتصالاً حقيقياً بالعالم أو العصر الذي كتب فيه.

إن صفة الناقد الديني تطلق على الناقد الذي يهتم بدراسة "نظام الخطاب، ذلك النظام الذي يقسم ((العالم)) إلى أجزاء، ويديره وينبهه، والذي يضع الإنسانية على الرف، والذي يحدد أننا ((نحن بشر)) بينما ((هم)) ليسوا كذلك، وما إلى ذلك. سوف نكتشف أنه حتى مادة حميدة كعلم اللغة أدّت دوراً في تلك العملية. والأهم من ذلك، علينا التصميم على كشف سرية النصوص وخصوصياتها، فكبر حجمها وتورطها تغطيه هبة فنّ العالم الآخر أو النصية ((المحضة))" (سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، 2008، صفحة 50). اقترح إدوارد سعيد قراءة نقدية دينوية تفكك الخطاب الغربي الذي قام على تقسيمات متحيزة تُعلي من قيمة الأنا الغربي وتؤمن بدونية الآخر الشرقي، خطاب يدعي الإنسانية والتحضّر ويسقط هذه الصفات عن بقية الشعوب. إن المعرفة الخطائية الغربية مرتبطة بالسلطة، وعلى الناقد الديني أن يتسلّح بوعي فكري يمكنه من تجاوز جمالية النص إلى الحفر عن البنيات العميقة التي يضمّرها الخطاب الغربي الذي كرس المعرفة لخدمة مصالحه السياسية، واستحوذ على حق تمثيل الشعوب الأخرى وإعادة إنتاج الشرق نصياً.

مثلت أفكار إدوارد سعيد عن دينوية النصوص الأدبية تمهيداً لطرح فكري أعمق ضمّنه كتاب "الثقافة والإمبريالية" الذي أبرز فيه إسهام «الثقافة في إنتاج الفنون والكتابات التاريخية، مشدداً على ضرورة تحقيق النقد الأدبي الواعي بحقيقة اتصاله؛ بالغة التعمّد، بمحاث التجربة الإنسانية ووقائعها، فضلاً عن ارتباطه بالمؤسسات الإمبريالية للسلطة» (واليا، 2007، صفحة 19)؛ فإدوارد سعيد شدّد على فكرة أن النصوص موجودة في العالم، وأنها ليست سوى انزياحات لغوية، بل هي أخطر من ذلك؛ لأن المعرفة الغربية تورطت في خدمة وتعزيز السلطة الإمبريالية. ويمكن أن تضرب مثالا عن طبيعة هذه العلاقة بالإشارة إلى بحوث المستشرقين التي كانت تمهيداً وتسهيلاً للمد الاستعماري الذي تلاها، كما أن المعرفة الاستشراقية قدّمت تمثيلات مغلوطة عن الشعوب الشرقية، وخدمت المخيلة الغربية المريضة التي وصفت الشرق بالسلبية والشهوانية، ووصفت الغرب بالعقلانية والإيجابية.

كان إدوارد سعيد نموذجاً للناقد الديني والمقارن الفطن؛ لأنه امتلاك حسّاً نقدياً مكّنه من مساءلة الثقافة الغربية، وكشف حيل السلطة وعلاقتها بالفن والأدب؛ فالنصوص الثقافية الغربية عبّرت عن الصراع السياسي والثقافي بين الشرق والغرب، وانحازت للغرب لأن الغرب كانت تحكمه إيديولوجيات مقبنة تؤمن بتفوق الفرد الغربي على بقية الشعوب. برز إدوارد سعيد كمثقف ملتزم تجاه قضية شعبه، وكان خير سفير للشعوب التابعة التي أقصيت من المتن الغربي، ولم ينهر بالثقافة الغربية التي اضطر أن يتعاطاها بسبب تجربة المنفى التي عاينها، وقد مكّنته هذه التجربة أن يختبر ثقافة الآخر عن قرب، ويكشف زيف الشعارات التي نادى بها الثقافة الغربية عن الإنسانية واحترام الآخر.

تبنى إدوارد سعيد طرحاً نقدياً أخرج الخطاب الأدبي من دائرة النصية المغلقة إلى رحاب النقد الثقافي المقارن الذي وسع المعاني التي يخزنها النص الأدبي، وقدم مداخل جديدة لقراءة النص تأخذ بعين الاعتبار السياقات الثقافية التي تمتصها النصوص الأدبية وتعيد إنتاجها دون وعي منها.

2/ القراءة الطباقية

أخرج الناقد الدينوي "إدوارد سعيد" "المشهد الثقافي في أمريكا من مخيلته إلى سياق الثقافة العالمية worldliness، وذلك من خلال ركيزة الأدب المقارن في جامعة كولومبيا التي شكلت متكاً رئيساً لبنية الطباق التي سار على نهجها؛ فالأدب المقارن يؤول في النهاية، كما يلاحظ إدوارد سعيد نفسه، إلى الديمقراطية بسبب مكوناته التعددية التي تتفوق على أدبيات الأدب المحلي الأحادية، ولما فيها من سياقات متعددة" (تمشي، 2022، صفحة 15). تفتن سعيد إلى الأسئلة الملحة التي طرأت على حقل الدراسات المقارنة، فاجترح آلية جديدة للمقارنة سماها "القراءة الطباقية"، وهذه القراءة تتجاوز المقارنات القديمة التي تبحث في نقاط المشابهة والتأثير والتأثر بين الآداب، وتتعدى البحث في جماليات الأدب إلى الاهتمام بالسياقات الثقافية المصاحبة للنصوص، وتركز على الكشف عن المسكوت عنه والمُعْتَب عمداً من السرديات الغربية التي تُعلي من قيمة الأنا على حساب الآخر.

استقى إدوارد سعيد مفهوم "القراءة الطباقية" من حقل الموسيقى، حيث أعجب بـ "عازف البيانو الكندي الفنان غلين غاولد، الشخص الذي «ضرب مثلاً للعرض الطباقي» (بيل و بال، إدوارد سعيد (مفارقة الهوية)، 2000، صفحة 129). وقد تحدث إدوارد سعيد مراراً عن ولعه بالموسيقى قائلاً: "إنّ الموسيقى هي سحر حياتي، والعلاقة بين الأدب وبعض الأنماط الموسيقية شيء لافت وساحر" (مجموعة مؤلفين، 2004، صفحة 145)، وفكرة "القراءة الطباقية" جاءت من تقارب أوجده سعيد بين الأدب والموسيقى، وهذه القراءة "تعول على المصطلح الموسيقي الذي يعني وجود لحنين في مقطوعة موسيقية واحدة وليست أحادية اللحن" (واليا، 2007، صفحة 17). وعند إسقاط هذه الفكرة على كتابات سعيد، نجد أن اللحن الأول هو الشرق/الهامش، أما اللحن الثاني فيمثله الغرب/المركز، أما القطعة الموسيقية الناتجة عن تمازج اللحنين فهي القراءة الطباقية التي تستدعي المركز والهامش في مقاربتها للنصوص الأدبية.

كشفت "القراءة الطباقية" تورط السرد الغربي الأحادي الصوت في خدمة المد الإمبريالي؛ فالطباقية «قراءة تجاوبية تطرح طباقاً (a counterpoint) للنص، وبهذا تعطي إمكانية لبروز التضمينات الكولونيالية التي قد تظل من دون ذلك تضمينات مُستخفية» (بيل، جارث، و هيلين، دراسات ما بعد الكولونيالية (المفاهيم الرئيسية)، 2010، صفحة 120). كشفت التضمينات الكولونيالية المضمرّة كيفية تعامل الكاتب الغربي مع السكان الأصليين في المستعمرات، وطبيعة العلاقة بين الكاتب والجغرافيا التي ضمّنها متنه السردية دون الإشارة إلى أنه وافد جديد وأن الأرض ليست أرضه، وتعامله مع هذه الأرض لا يختلف عن تعامل الذي استولى عليها بالقوة. والسبب في ذلك أن الدول المستعمرة تشيع هذه الصور المغلوطة، وتقنع أبناء شعبها منذ نعومة أظفارهم أن الاستعمار أمر حتمي فهو مهمّة نبيلة لتمدين الشعوب الأخرى.

أشار إدوارد سعيد إلى الروائية الإنجليزية "جين أوستن" التي احتوى متنها الروائي تضمينات كولونيالية عدّها القارئ الغربي أمراً عادياً، لكن إدوارد سعيد قرأ أعمالها بعين الناقد الدينوي - التي تعتبر النص جزءاً من العالم - واستعان

بالقراءة الطباقية التي كشفت كيف "أن مزرعة استعمارية لقصب السكر تعايُن بوصفها هامة بالنسبة لعملية الحفاظ على أسلوب معين للحياة في انكلترا" (سعيد، الثقافة والإمبريالية، 2014، صفحة 135). فالكاتبة رَوّجت لنسق ثقافي خدم المد الإمبريالي، وروت الحكاية بصوت أحادي سلب الآخر حق تمثيل نفسه، أو إبداء موقفه من سياسات التمثيل المغلوطة التي تتعمد إسكاته وإقصاءه من المتن. وهذه المزارع قرأها سعيد كاستعارات ثقافية أضمرت أساقفاً ثقافية تسللت إلى وعي الكاتبة بطريقة واعية أو غير واعية، لكنها في النهاية كشفت تواطؤ السرد الغربي مع المد الإمبريالي.

ضرب إدوارد سعيد مثالا آخر عن التجربة الاستعمارية في الجزائر، وكشف تورط كاتب كبير كـ "ألبير كامو" في مباركة المد الإمبريالي: "وكامو على قدر بالغ من الأهمية في <سياق> الاضطراب الاستعماري البشع الناتج من مخاض تفكيك الاستعمار الذي مرت به فرنسا في القرن العشرين. إنه شخصية امبريالية متأخرة جداً لم يبق بعد انقضاء أوج الامبراطورية محسب، بل ما يزال باقياً اليوم بوصفه كاتباً "كوفي النزوع" تضرب جذوره في عملية استعمارية صارت الآن نسياً منسياً" (سعيد، الثقافة والإمبريالية، 2014، صفحة 233). فكلمو قدم لنا سرداً أحادياً رَوّج لعقيلة امتياز الأوروبي وتفوق الرجل الأبيض على بقية شعوب العالم، كما أن أعماله الروائية غيّبت التاريخ الاستعماري في الجزائر. وقد تضمّنت روايته الشهيرة "الغريب" شخصاً روائيةً جزائريةً بلا أساء، وهذا يثبت تواطؤ هذا الكاتب العالمي مع المد الإمبريالي.

اقترح إدوارد سعيد قراءة طباقية تستدعي صوت الطرف الثاني من المعادلة، الآخر الذي سلبه الغرب حق تمثيل نفسه؛ فـ "القراءة الطباقية ينبغي أن تُدخل في حسابها كلتا العمليتين: العملية الامبريالية، وعملية المقاومة لها، ويمكن أن يتم ذلك بتوسيع قراءتنا للنصوص لتشمل ما تم ذات يوم إقصاؤه بالقوة - <وهو> في <رواية> الغريب، مثلاً، التاريخ السابق بأسره لاستعمار فرنسا وتدميرها للدولة الجزائرية، ثم الظهور اللاحق لجزائر مستقلة (اتخذ منها كامو موقف المعارضة)" (سعيد، الثقافة والإمبريالية، 2014، صفحة 135). ألحّت القراءة الطباقية التي تبناها سعيد على استدعاء السرد المضاد للسرد الغربي، وهذه السرود هي مقاومة ثقافية للآخر الغربي الذي أقصى الشعوب الأصلية وتعامل مع جغرافيا البلدان المستعمرة تعاملًا مريبًا يصور المستعمر كمالك حقيقي للأرض، أما السكان الأصليون فيتم تصويرهم كأفراد خاضعين غرباء عن أرضهم.

لم يقف إعجاب إدوارد سعيد بالكاتب العالمي "كونراد" حائلاً أمام إخضاع سرديته للقراءة الطباقية القائمة على المساءلة الثقافية؛ لقد "أتاحت عبقرية كونراد له أن يدرك أن الظلام الدائم الوجود قابل لأن يُستعمر أو يضاء - <إذ> تحتشد قلب الظلام بالإشارات إلى الرسالة التحضيرية، إلى مخططات نخبة خيرة وأخرى قاسية فظة لإحضار النور إلى الأمكنة والشعوب المظلمة في هذا العالم" (سعيد، الثقافة والإمبريالية، 2014، صفحة 99). وقد كشفت قراءة سعيد لكونراد عن تضمينات كولونيالية خطيرة عبّرت عن حقيقة الكاتب الذي لم يختلف في النهاية عن رجل سياسي همّه توسيع مستعمراته، والتخفي خلف مبرر نشر المدنية والحضارة في أدغال إفريقيا.

آمن إدوارد سعيد بقدرة القراءة الطباقية على تقديم تأويل يسمح بتقارب الثقافات بدل تنافرها. هذه القراءة تنطلق من الاعتراف بالهجنة الثقافية التي أوجدها التماس بين ثقافة المستعمر وثقافة المستعمر: "وسأحاول أن أصوغ بدلاً من بلاغيات الملامة بل لِمَا هو أكثر تدميراً منها، أي بلاغيات المواجهة والعدائية. عن طريق معاينة طباقية <كما في

الطباق الموسيقي > للتجارب المتباينة بوصفها تشكل طقماً ممّا أَسَمِيَه توارخ متواشجة ومتقاطعة. لربما انبثق عن ذلك تأويلٌ دنيوي أكثر إشافة وإثراء وجدوى من شجب الماضي " (سعيد، الثقافة والإمبريالية، 2014، صفحة 89). وهذه القراءة ستسمح للشعوب المهمشة بأن تتكلم وتكتب سروداً مضادة تمثل بها نفسها، وتصحح الصور المغلوطة التي أشاعتها عنها السرود المركزية.

وفي الأخير يمكن القول إن القراءة الطباقية التي اجترحها "إدوارد سعيد" هي مساءلة ثقافية للخطابات والنصوص الأدبية الغربية، وهي بذلك بحث عن الأنساق الثقافية المضمرة التي تخفيها هذه النصوص من تضمينات كولونيالية، واستعارات ثقافية تعبر عن تورط السرد المركزي الغربي في خدمة المد الإمبريالي.

خاتمة

وفي الختام، يمكن إجمال نتائج البحث في النقاط الآتية:

- تميز المنظور التاريخي الفرنسي في تعريف الأدب المقارن بالتركيز على الصلات التاريخية بين الآداب، وقد وقع أعلام هذا الاتجاه في مزالق فكرية أبرزها النزعة التعصبية والإيمان بعقلية التفوق الحضاري الأوروبي.
- احتكمت المدرسة الأمريكية المقارنة إلى المنظور النقدي الذي يركز على جمالية الأدب، ويوسع مجال المقارنة لتشمل باقي أشكال التعبير الإنساني.
- كان الهدف الأول للدراسات المقارنة البحث عن المشترك الإنساني بين آداب الشعوب، لكن الحقيقة أن هذا الحقل أضمر نزعات عرقية مقبنة، تؤمن بأن الغرب هو مركز العالم، وتُسقط عن الشعوب الأخرى صفات الحضارة والمدنية.
- عجز الأدب المقارن عن الإجابة عن أسئلة التعددية العرقية والثقافية التي تبنتها السرديات المضادة للسرد الغربي المركزي، فاضطر مُنظروه إلى ركوب موجة الدراسات الثقافية، وتجديد آليات المقارنة.
- تنبّه الناقد المقارن "إدوارد سعيد" إلى الأسئلة الملحة التي طرأت على حقل الدراسات المقارنة، فاجترح مداخل جديدة لقراءة النصوص تقوم على تجاوز جماليات النصوص، والقول بدنيوية النصوص الأدبية.
- تجلّت معالم النقد الثقافي المقارن عند "إدوارد سعيد" في منهجه الطباق القائم على التعددية الثقافية، وقراءة الأدب من منظور التشارك الإنساني؛ لأن الهويات ما بعد الاستعمارية هويات هجينة.
- إن القراءة الطباقية هي مساءلة ثقافية للنصوص القومية والعالمية، وبحث عن المضمر والمسكوت عنه في النص.

قائمة المراجع

1. أحمد إغجاز، و إدوارد سعيد. (2004). الاستشراق وما بعده: إدوارد سعيد من منظور النقد الماركسي (الإصدار 1). (ثائر ديب، المترجمون) دمشق: ورد للطباعة و النشر و التوزيع.
2. أحمد شوقي عبد الجواد رضوان. (1990). مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن (الإصدار 1). بيروت: دار العلوم العربية للطباعة والنشر.

3. إدوارد سعيد. (2000). *العالم والنص والناقد*. (عبد الكريم محفوظ، المترجمون) دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
4. إدوارد سعيد. (2007). *الثقافة والمقاومة* (الإصدار 1). (علاء الدين أبوزينة، المترجمون) بيروت: دار الآداب.
5. إدوارد سعيد. (2008). *السلطة والسياسة والثقافة* (الإصدار 1). (ناثلة قلقيلي مجازي، المترجمون) بيروت: دار الآداب.
6. إدوارد سعيد. (2014). *الثقافة والإمبريالية* (الإصدار 4). (كمال أبو ديب، المترجمون) بيروت: دار الآداب للنشر والتوزيع.
7. أشكروفت بيل، جريفث جاريث، و تيفين هيلين. (2010). *دراسات ما بعد الكولونيالية (المفاهيم الرئيسية)* (الإصدار 1). (أحمد الروي، أحمد حلمي، و عاطف عثمان، المترجمون) القاهرة: المركز القومي للترجمة.
8. أشكروفت بيل، و أهلواليا بال. (2000). *إدوارد سعيد (مفارقة الهوية)* (الإصدار 1). (سهيل نجم، المترجمون) دمشق: نينوى للدراسات والنشر والتوزيع.
9. برن تمثي. (2022). *إدوارد سعيد (أماكن الفكر)* (الإصدار 1). (محمد عصفور، المترجمون) الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
10. حسام الخطيب. (2018). *آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا* (الإصدار 3). رام الله: مركز حنين للخدمات الجامعية.
11. سعيد أراق بن محمد. (2015). *الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب* (الإصدار 1). عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع.
12. سعيد علوش. (1987). *مدارس الأدب المقارن (دراسة منهجية)* (الإصدار 1). المغرب: المركز الثقافي العربي.
13. سمير الخليل. (2016). *دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي (إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة)* (الإصدار 1). بيروت: دار الكتب العلمية.
14. شيلي واليا. (2007). *إدوارد سعيد وكتابة التاريخ* (الإصدار 1). (أحمد خريس، و ناصر أبو الهيجاء، المترجمون) بيروت: أزمنة للنشر والتوزيع.
15. عز الدين المناصرة. (2005). *النقد الثقافي المقارن (منظور جدلي تفكيكي)* (الإصدار 1). عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.
16. فرنسو غويار ماريوس. (1988). *الأدب المقارن* (الإصدار 1، المجلد 2). (محمد غلاب، المترجمون) القاهرة: لجنة البيان العربي.
17. مجموعة مؤلفين. (2004). *النقد والمجتمع* (الإصدار 1). (صالح فخري، المترجمون) دمشق: دار كنعان.
18. ندا طه. (1991). *الأدب المقارن*. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.